الإرث اللغوي للكتابة الصورية في الألف الأول قبل الميلاد

أ.د. عبد الإله فاضل
كلية الآداب / جامعة بغداد

شهدت بلاد وادي الرافدين وعلى وجه التحديد بلد سومر اختراع اقدم وسيلة للتدوين وظهورها ، ولم يكن سهلا على القدماء العرا قيين ان يكتشفو نظاما مثل الكتابة ، اذ لولا اختراع الكتابة لما استطاع العالم ان يتقدم خطوه واحدة الى الأمام ، ففي الكتابة حفظ التطور العلمي من الضياع ، وانتقلت المعارف عبر الشعوب .

تحتاج الكتابة لأجل اختراعها الى مقومات ومن اهمها النظام الذي يحددها، فضلا عن مادة الكتابة واداتها ، وكذلك المقومات الجغرافية ، وكانت المادة المستخدمة من ابسط المواد الطبيعية في العراق القديم وهو الطين الذي كان ولا يزال مادة متوفرة بكثرة في جنوب العراق .

ان الطين مادة خلق وابداع اذ ان الانسان نفسه قد خلق من الطين طبقا للفلسفة العراقية القديمة في قصة الخليقة البابلية ، وبعدها اهتدوا الى المادة لم يبق لهم غير أداة الكتابة التي كانت متيسرة في الطبيعة في جنوب العراق وهو القصب ، ليتخذوا منه أداة للكتابة . من المعروف ان اقدم دليل على الكتابة في الشرق الادنى القديم هو الخط أو الكتابة الصورية السومرية التي تعود الى

نهاية الألف الرابع قبل الميلاد .وان الاصول الاولى لهذه الكتابة يعزى سبب ظهورها الى عوامل بيئية وبعض التحولات الجغرافية في اثناء تلك الحقبة القديمة . اذ كانت الأحوال طبيعية في جنوب العراق نوعا ما غير ملائمة للاستيطان البشري بصورة كثيفة، وكانت الظروف تتطلب امكانات لتأمين المتطلبات الاساسية للاستيطان ، وفقر المنطقة الى المواد الأولية ما عدا القصب والطين ، كما ان المستوطنات الدائمة كانت تواجه خطر الفيضانت الواسعة . وتتوضح الشواهد العامة لهذا الوضع الجغرافي بصورة أكبر ، اذا أخذنا بالحسبان نتائج مناخية معينة ومستندة الى بحوث علماء يعملون فيما يتعلق بالظواهر الجوية في الخليج العربي ، فقد كانت المنطقة الجنوبية من العراق مشبعة بالمياه الغزيرة في الألف الخامس قبل الميلاد ، وكان مستوى مياه البحر مرتفعا جدا بحيث كانت مساحات شاسعة من الارضي الساحلية مغمورة بالمياه، وكذلك كانت مناطق واسعة من الاراضي داخل البلاد تعاني من انغمار بالغرين ، ويحيل هذه الاراضي الى اهوار ومستنقعات . وفي الحقيقة فان الدلائل على وجود الانسان في المنطقة في اثناء الحقبة المبكرة ضئيلة جدا ، وبدأ الوضع يتبدل أحيانا في اثناء النصف الاول من الالف الرابع قبل الميلاد ، عندما حدث تغير مناخي في نقصان كبير في مستجمعات الأمطار التي تصب في النهرين العظيمين ، دجله والفرات ، وغدت الفيضانات اقل شدة ، واخذ مستوى المياه في الخليج العربي ينخفض تدريجيا عن مستوى الأراضي[1] .

ويتأكد لدينا في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد ان أجزاء واسعة من الاراضي السومرية قد جفت بالتدريج وتوافرت الفرص لإنشاء

مستوطنات دائمة وسط مساحات من الأراضي الصالحة للزراعة . ان حلول الحضارة المبكرة في جنوب بلاد الرافدين في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد ، كان نتيجة مجموعة ظروف عرضية نشأت من تراجع تهديد الفيضان في الأراضي المنخفضة ، ووجود اشكال معينة من موارد العيش . وقبل كل شيء فأن وجود المياه والأراضي الصالحة للزراعة ، كان شاهداً على المساحة الكبيرة والواسعة من الاراضي الصالحة للزراعة التي شهدتها بلاد سومر في تلك الحقبة، وأن ضمان الكثافة السكانية حدد الأساس والضرورة لتطور البنى الاجتماعية والتنظيميّة المعقدة ولاسيما ضمن حقل الإدارة والاقتصاد . فان الذي قاد الى اختراع الكتابة هو الحاجة الاقتصادية التي تمثل دورها في استعمالها في البداية لأغراض الحساب والعدد ، وذلك في ضمن المسار الاقتصادي المبكر والتحقت بعدها بضمن المسار الحضاري بعد التطور الفكري . لقد ظهر اقدم خط وكتابة صورية سومرية في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد في القسم الجنوبي من عراق اليوم.

وكانت علامات تلك الكتابة تطبع بمساعدة قلم من القصب على وجه ألواح الطين التي ما تزال طرية ، وقد تطور هذا الخط الصوري المبكر الى الخط المسماري ، المعروف جيدا وهو السمة المميزة في تاريخ بلاد وادي الرافدين وثقافته . ولهذا فأن مصطلح (الشبيه بالمسماري) للكتابة الاركائية (القديمة) أو السحيقة القدم سيكون المحور الرئيس لهذا البحث .

ان اغلب الألواح الطينية في هذا الطور المبكر وجدت في أثناء التنقيبات الأثرية في مدينة الوركاء (اورك) القديمة ، وليست الألواح من (اورك) هي

الوثائق (الاركائية) القديمة أو البدائية الوحيدة المعروفة من هذه الحقبة ، فقد وجدت الواح مشابهة في القسم الشمالي من بلاد بابل ، في جمدد نصر ، وبعض الألواح من مدينة (شروباك) القديمة التي تسمى حاليا (فارة) وتل العقير.

من المعروف ان الكتابة في مراحلها القديمة اتخذت الشكل الصوري ، فأذا أراد الانسان أن يكتب أو يقول (سمكة) ، فأنه يقوم برسم (سمكه) ، ولذلك عرف اللغويين هذة الكتابة بالكتابة الصورية[٢] . وفي رأي بعض الباحثين وكذلك المكتشفات الاثرية فهناك ثمة دراسات حديثة نسبيا ، بشأن ما عرف بمرحلة ما قبل الكتابة تبين ان الكتابة ظهرت بأشكال استخدمت لأغراض الحساب والعدد وتسمى (Tokens)[٣] ، أي رموز طينية بسيطة ترمز الى الأشياء المادية التي أرادوا الإشارة إليها ، أو مقدار عددها . وقد ظهرت هذه الرموز منذ العصر الحجري الحديث . ولكن مثل هذة الوسائل الرمزية يمكن ان تعد الأسلاف الوظيفية للكتابة ، ولم يكن هذا الخط المبكر أقل شأنا من هذه المعينات الإدارية التي غدت جزء لا يتجزأ من الحياة في بلاد وادي الرافدين المبكرة .

ان الرموز الطينية أي الـ (Tokens) والألواح العديدة تمثل وسيلة كتابية ما دامت تشمل كل المعطيات العددية والمعلومات المتعلقة بالأشخاص ، وان استخدام الرموز على الطين التي يبدوان أشكال بعضها كانت تشير بصورة واضحة الى اشياء معينة ، وان الأقراص الطينية المنبسطة التي كان فيها الطبع ،أي الأشكال الغائرة والمدورة أو المستطيلة ، تمثل قيما عددية ، وبهذا فقد تيسرت المتطلبات الأساسية والتغذيات لتطوير الكتابة الصورية كما نعرفها .

وقد اصطلح على تسمية العهد الذي ظهرت فيه أقدم أشكال الكتابة لأول مرة (بالدور الشبيه بالكتابي) أما حدود تسلسل الحقب التاريخية لاكتشاف الكتابة فان معرفتنا لهذا التأريخ المطلق ، أي تعيين تأريخ ذلك لبداية الحقب الحضارية الاولى في الشرق الأدنى القديم ،فأن الحقبة الزمنية بين الحاضر وأي حقبة قديمة لا تزال قاصرة بمعلوماتها . ونتيجة البحث الجدي الذي قام به المؤرخون والذين حللوا الأدلة المكتوبة ، والاثاريون الذين درسوا الحلقات المادية للحضارات التي عرفت بعضها الترتيب الزمني ، وكذلك الفيزيائيون الذين تمكنوا بواسطة كاربون (١٤) من تحديد الحقبة المضبوطة للمادة العضوية الموجودة في الطبقات الآثارية ، فقد غدا من المقبول بنحو واسع أن المرحلة التي أشرت أول ظهور للكتابة كان بين ٣٥٠٠ ق.م و ٢٨٠٠ ق.م ، وأن أقرب تاريخ محتمل يعين ظهور اختراعها هو (٣١٠٠ ق.م) ، وأن الاعتبارات الآتية تستند إلى هذا الغرض . وأن التواريخ ليست إلا لفهم تقريبي ، غير ناسين أن التواريخ الأقدم عرضة للتقلب[٤].

بعد أن تطورت الكتابة بالخط الصوري إلى الطور الرمزي ، ثم الطور المقطعي (الصوتي) ، فأن هذا التطور استغرق مئات السنين . أن هذا الإنجاز العظيم مكن من أن يجعلها لغة تخاطب ولبت حاجاته بها ، وذلك يرجع إلى ذكاء الكاتب السومري ، فقد قام باستخدام كتابة الصورة ليس لمعناها ، كما هي في الصورة ، وإنما كذلك إلى المعاني المقاربة لها . فمثلاً العلامة الصورية والتي تظهر كسهم التي تقرأ بكلمة (ti) وتكتب بنفس علامة الكلمة السومرية (حياد) وهي أيضاً العلامة (ti) ، وهذا مثال واضح على تطور الكتابة السومرية.

واستخدم الخط المسماري في ذلك . وقد كتبت اللغة الأكدية (بلهجتها البابلية والآشورية) واستمر الخط المسماري إلى أواخر الألف الأول قبل الميلاد ، وقد عرفت به البابلية بالطور البابلي الحديث والمتأخر ، والآشورية بالآشورية الحديثة(٥).

ولكن عندما يتأمل الشخص اللهجة البابلية والآشورية ويدرس نظرتهم اللغوية إلى مصطلح (تراث) أي الماضي وكذلك (المستقبل) ، فأن المصطلح الزمني لهما قد أطلق عليه في اللغة الأكدية قديماً ، أي في الأكدية Pāna, pān , pānānn , pani , panû أو الزمن القديم ، أي الماضي Pānatu , pānītu , pānū .

كل هذه المصطلحات اللغوية ترينا أنها اشتقاق لغوي من الكلمة الأكدية panu (m) وتعني (وجه ، أمام) ، وفي حالة الجمع panu (وجوه) ، ويعادل هذا المصطلح في اللغة السومرية الكلمة (igi) والتي تعني العين أو الوجه وكذلك أمام.

كل هذا يدل لنا على حقيقة هو أن مصطلح (الماضي) أو التراث في اللغة الأكدية والسومرية هو (أمام) أي أن الماضي هو أمام العراقيين القدماء ، أي مواجه للمشاهد والملاحظ .

وقد استخدم مصطلح (W) araka, (W) ar Kānu (m), (W) arki التي تعني متأخر فيما بعد ، وأن كلمة (W) arkû (m) فأنها تعني مستقبلاً ، وأن (W) arkitu (m) تعني فيما بعد ، متأخراً ، أي الزمن المتأخر ، المستقبل. وأن هذه الاشتقاقات تعود من أصل الكلمة الأكدية Warkatu (m)

والتي تعني (ظهر) أو (خلف) وأن المصطلح السومري المشابه لها هو eger , murgu , bar . كما أن أصول هذه المصطلحات السومرية تعني خلف، ظهر ، وراء .

أن فهم هذه المشكلة يقودنا إلى أن البابليين والآشوريين ، يرون الماضي أمام عيونهم ، وأن المستقبل بالنسبة لهم خلف ظهورهم ، وأن هذا المفهوم لبعض المجتمعات الحديثة يكون عكس ذلك(٦).

أن هذه الحقيقة تقودنا إلى فكرة واضحة ، بأن التراث الحضاري اللغوي للعراقيين القدماء وماضيهم الحضاري ماثل أمام أعينهم ، وأن الاهتمام بالتراث هو اتجاه واضح أمامهم ، وتواصلوا معه ، فنلاحظ مثلاً أن الملك الشهير حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م) قد استخدم في قانونه كتابة خط أقدم من زمانه بحوالي (٥٠٠ عام)(٧) ، أي أن العلامات والمقاطع التي كتب بها قانونه هي أقدم من زمنه . وكذلك نلاحظ بأن بعض الملوك البابليين والآشوريين من فترة الألف الأول قبل الميلاد ، قد كتبوا بعضاً من كتاباتهم الملكية بلغة أكدية تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد ، أي بلغة تراثية قديمة ، وعدوها اللغة الكلاسيكية بالنسبة لهم. وأكثر من ذلك ، فأنهم استعملوا الكتابة الاركائية الصورية القديمة ، والتي استعملت في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد . كما أنه وجد في أثناء التنقيبات الأثرية في مدينة النمرود وآشور وعي أكثر عدداً في مكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال معجمات لغوية تعليمية ، أي من نوع (Syllabary) وقد كتبت بالكتابة الصورية وبجانبها العلامة وأصوات قراءتها بالخط الآشوري الحديث

(أنظر الأشكال المرفقة مع البحث) . كما تعطينا هذه النصوص الإجابة على الأسئلة حول نظام العلامات للكتابة السومرية . وأن البابليين والآشوريين تتبعوا نظام معروف للعلامات المسمارية ، وهذا النظام كما هو في (Syllabary A)[٨]. وأن هذه النصوص التي وجدت على ألواح الطين من مكتبة آشور بانيبال ما هي إلا تواصل ومحافظة على التراث اللغوي . كما نرى أيضاً بأن هناك دعم تأريخي لهذا التراث اللغوي ، كما رأينا عند بعض الملوك البابليين أمثال الملك حمورابي، وكذلك عند بعض الملوك الآشوريين أمثال الملك الشهير المثقف آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧ ق.م) وأنه متمكن من الثقافة اللغوية القديمة والتراث الحضاري وبالمعرفة ذات الجذور الممتدة في الماضي . وتأكيداً على العثور على الكتابة الصورية في العهد الآشوري الحديث والتي توافق الأخبار التأريخية في هذا العصر ، فأن الملك آشور بانيبال في كتاباته قائلاً : (امتلكت من سيدي أدبا ، وتعلمت المعرفة الخاصة بالكتبة ... واستطعت من حل المسائل المعقدة في القسمة والضرب ، واتقنت فن الكتابة السومرية الموغلة في القدم والبالغة التعقيد ، وسيطرت على الكتابة الأكدية ، وكنت استمتع بقراءة الأحجار التي تعود إلى أزمان ما قبل الطوفان) . كما أنه هناك إشارة تأريخية إلى أن أخيه شمش شم أوكن قد أولع بثقافة الماضي ، أي التراث مثل آشور بانيبال. ومما تجدر الإشارة إليه أن شمش شوم أدكن قد استخدم لقب (ملك Amnanu) وهو لقب استخدمه لأول مرة الملك سنكاشد أحد ملوك الوركاء قبل زمانه بألف عام .

ويبدو أن اهتمام الملك آشور بانيبال بثقافة العصور القديمة التي ربما انعكست على روحية ذلك العصر من خلال اهتمام السكان أيضاً بإحياء وتواصل بالتراث الثقافي ومعارف العصور القديمة . كما وردت في رسالة موجهة إلى الملك آشور بانيبال من أحد الكتبة جاء فيها : (سنسير على تعليماتكم الموجهة إلينا ، بخصوص جمع الرقم المدونة باللغة السومرية)[٩].

وأخيراً يجب القول بأن هناك حقيقة تاريخية لغوية بأن الكتابة الصورية قد عرفت في الألف الأول قبل الميلاد ، أي أن هناك نحو ألفي عام ما بين اكتشاف هذه الكتابة الصورية وتواصلها إلى الألف الأول قبل الميلاد ، كما قد أثبتت الأدلة الكتابية حقيقة مصداقية الملك آشور بانيبال بأنه كان يعرف القراءة والكتابة الصورية السحيقة القدم ، وهناك تواصل في التراث اللغوي للكتابة في العراق القديم . (أنظر الأشكال ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) .

المصـــادر :

1. Nissen H.J. Demerow P. und Englund R.K. (Fruhe schrift und Techniken der Wirtsch aftsverwatung im Alten Vordem Orient Berlin, 1990, P. 7-5 .

ترجمة العنوان (الكتابات الأولى والتقنية للإدارة الاقتصادية في الشرق القديم).

Englund L.K. und Nissen H.J. (Die Lexikatische Listen der Artchiaschen Texte aus Uruk, Berlin, 1993 (Einteitung).

ترجمة العنوان : (القوائم القاموسية للنصوص الاركائية من الوركاء) .

Nissen H.J. (Geographie) In A Syriological Studies , Vol. 20, Chicago, 1976, P. 9-15.

2. Ibid.

3. Schmandt Besserat P. (How Writing Came About) University of Texas Press. 1996, P. 1-20.

4. Green M.W. und Nissen (Zeichen liste der Archaischen Texte aus Uruk) Eileutung.

ترجمة العنوان : (النصوص الاركائية من الوركاء) المدخل.

Vajman, A.A. (Beitrage zur Entzifferung der Archaischen Schriften Vorderasiens) in Baghdader Milleilungen (Bam) Band 20, 1989, P. 94-95 .

5. Falkenstein (Archaische Texte aus Uruk), Berlin, 1939, P. 1010.

Nissen, H.J. (The Early History of the Ancient Near – East), Chicago, 1988, P. 1-30.

6. Maul, S.M. (Im Faden Kreuz Von Raum und Zeit) P. 27, in Heidelberger Jahr Bucher XLII, 1998, P. 27.

7. Ibid, P. 28.

8. Landsberger, Hallock (Meterialen Zum Sumerischen Lexikon) (MSL III), 1955, Roma, P. 15-20 .

Meissner B. (Eun Assyrisches Lehrbuch der Palaographie) in (Archiv fur Orient Forschung) (Afo) Band 4 (1927) , P. 71-72.

Wiseman and Black, J.A. (Lterar Texts from the Temple of Nabu Cuneiform Text from Nimrud IV, 1996, P. 33, Nr. 229 and Nr. 235.

Finkel, J. in Nabu Nr. 1 (Mars), 1997, P. 1.

9. Maul, S.M. (Das Wort Im Worte) in Commenturies – Kommentare Gottingen edited by W. Most P. 1-3.

Salvini, A.B.(La Conscience du Temps en Mesopotamie), P. 33, in Antiquite Semitiques III, Paris, 1998 .

Luckenbill, D.O. (Ancient Records of Assyria and Babylonia), Part 2 , Chicago, 1927, P. 378-379.

Streck, M. (Assurbanlpal und letzten Assyrischen Konige bis zum untengange Niniveh) Teil II, Texte, P. 254-256 und Teil III, P. 544 , Leipzig.

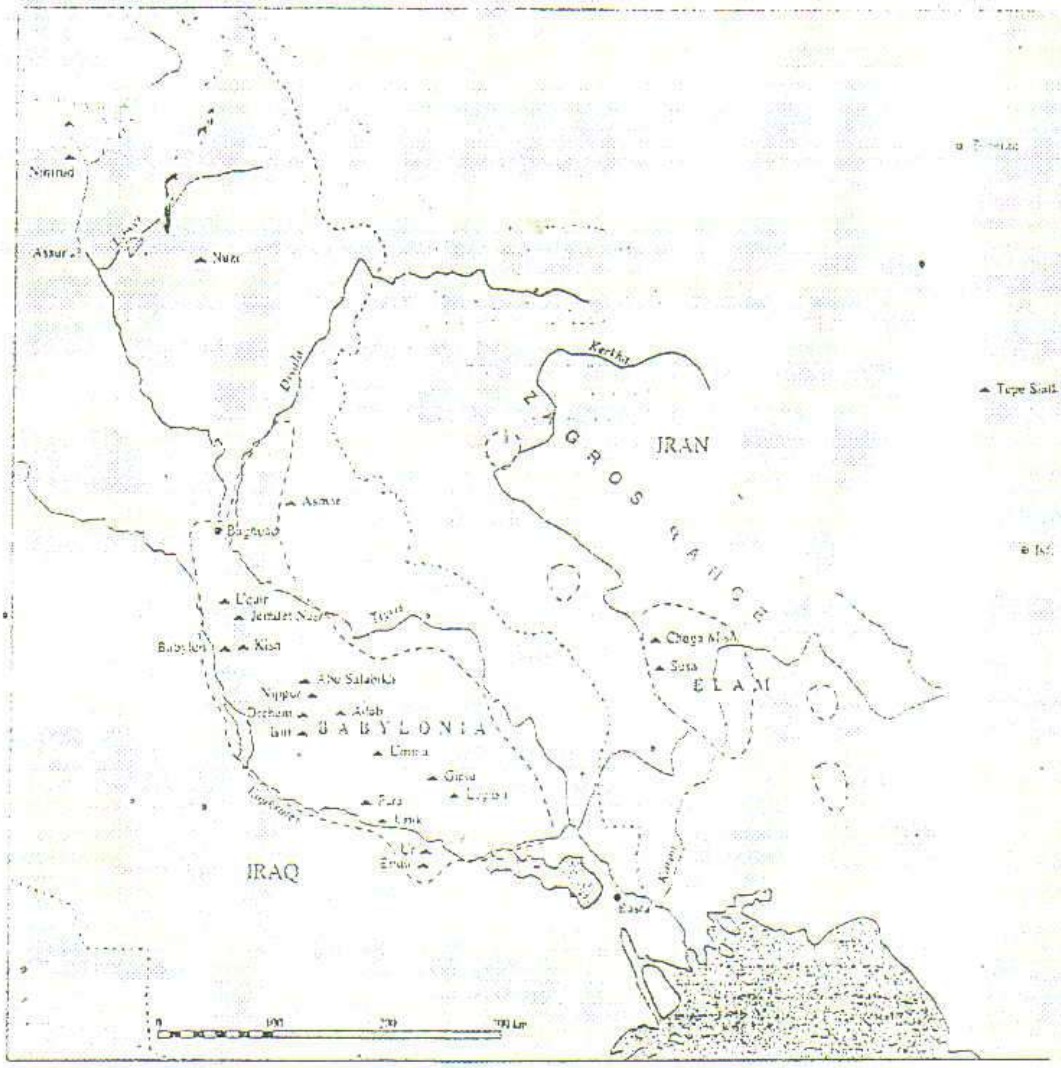

Map of Babylonia and Western Iran showing the regions of rain-fed (light grey) and irrigated agriculture (darker grey), as well as the extension of the settlement areas in antiquity (enclosed in hatched lines).

شكل رقم (١)

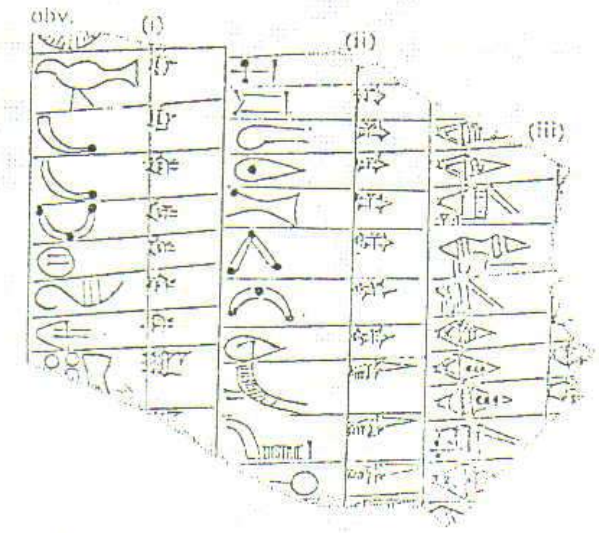

229

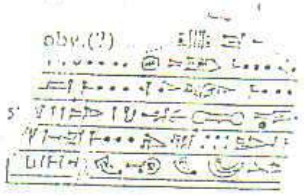

235

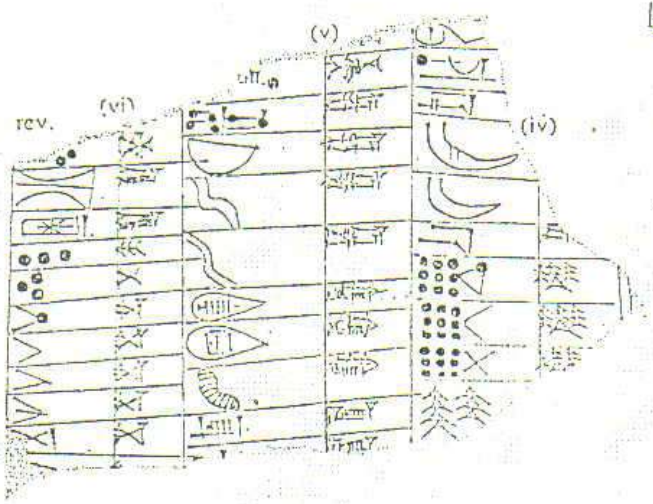

شكل رقم (٢)

obv

MSL

I

199	⌜ki-i	𒆠	105	*ki-ku-ú*
200	⌜di-i	𒆠	106	*sa-al-gu-uḫ-ḫu*
201	⌜sa-al	𒆠		"
202	⌜si-sa	𒆠		"
203	⌜šá-ar	𒆠	107	*ni-si-gu*

II

213	⌜gu-ú	𒄑	111	*gu-ud-du*
214	⌜gu-ud	𒄑		"
215	⌜ul-lu	𒆠	112	*giš-ḫu — gu-uḫ-ḫu*
216	⌜a-za	𒆠	113	*pi-rig — za-a — i-gub*
217	⌜a-[za]	𒆠		[" " "]

III

221	⌜an-šú	𒀀	115	*gi-ru-ú*
222	⌜ḫu-uš	𒀀		"
223	⌜pi-rig(-)	𒀀		"
224	⌜la-b[u]	𒀀		["]
225	⌜gi-ru	𒀀		"
226	⌜a-li-im	𒀀	116	*a-li-im-mu*
227	⌜ḫu-uš	𒀀	117	*ḫu-uš-šu*
228	⌜ki-iš	𒀀	118	*kiš-šá-tum*
229	⌜an-šú	𒀀	119	*an-šu-ú*

شكل رقم (٣)

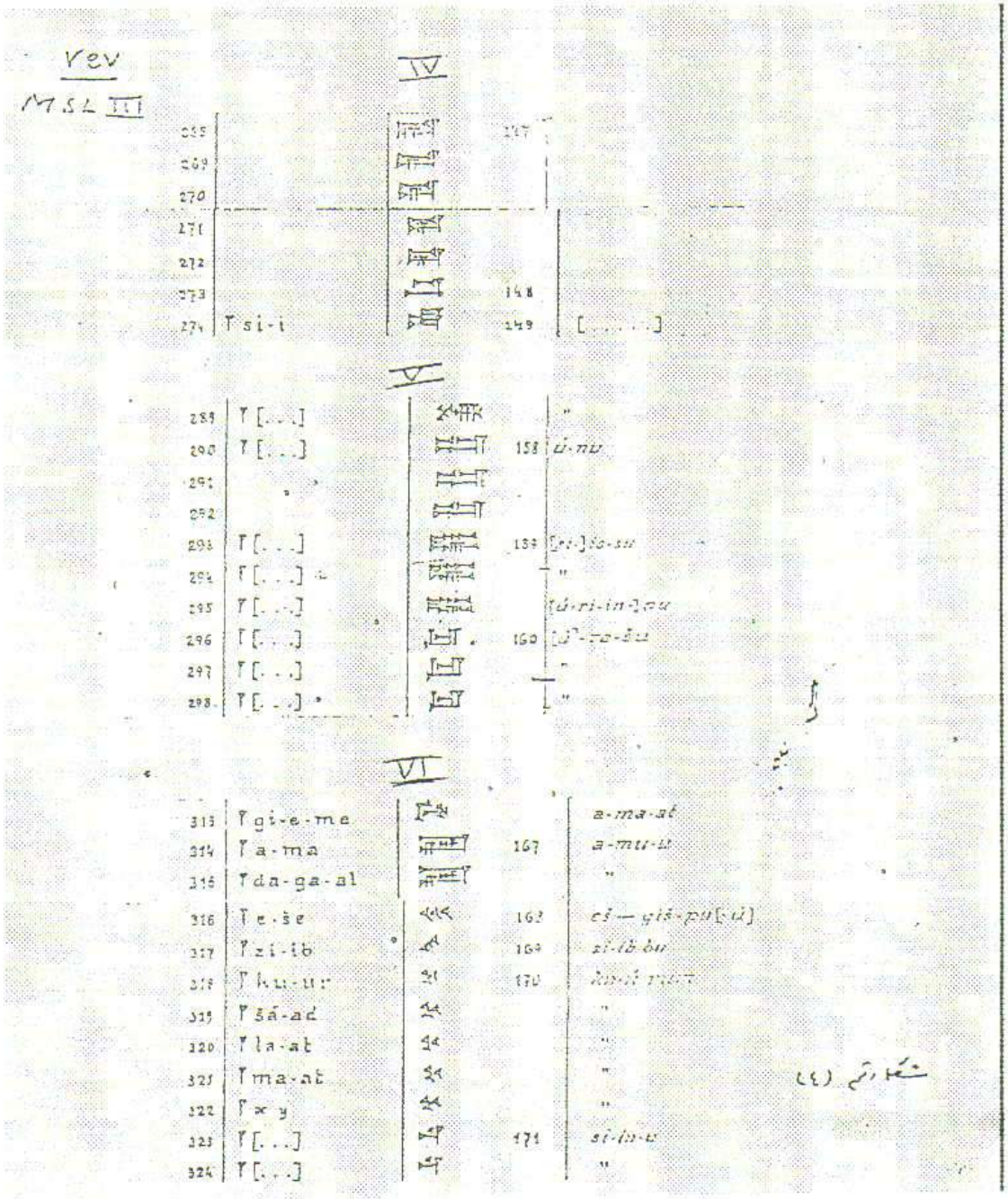

شكل رقم (٤)